مجلة العلوم التربوية والدراسات الإنسانية

ISSN: 2617-5908

تطور الأوضاع السياسية في القدس منذ الفتح حتى نهاية القرن السابع الهجري(*)

إعداد

د/ هايل خليفة إبراهيم الدهيسات
أستاذ التاريخ المساعد قسم العلوم الاجتماعية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة جازان
المملكة العربية السعودية

*)- تاريخ تسليم البحث ٢٠٢٠/٤/١٨م. تاريخ قبوله للنشر ٢٠٢٠/٥/٧م.

ملخص البحث

أظهرت الدراسة تطور الأوضاع السياسية في القدس منذ الفتح حتى نهاية القرن السابع الهجري. وكشفت عن أهمية الفتح الإسلامي للمدينة في العهد الراشدي، وما رافق ذلك على المستوى السياسي من توثيق "العهدة العمرية"، التي أرست قواعد التسامح مع أصحاب الديانات الأخرى. تناولت الدراسة أثر الحكم الأموي على واقع المدينة من خلال بناء قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك. وضحت الدراسة مكانة الاتجاه الإسلامي للمدينة في زمن العباسيين. كما استعرضت الدراسة تاريخ المدينة في العصر الفاطمي.

على مستوى تطور الأوضاع السياسية والعسكرية في القدس، تناولت الدراسة تاريخ المدينة والحروب الصليبية، وما رافق ذلك من متغيرات أثرت على واقع المدينة، في وقت كانت القدس تتبع الحكم الفاطمي في القاهرة. عالجت الدراسة عودة المدينة لنور الإسلام سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) بعد أن خيم عليها ظلام الصليبيين مدة ثمان وثمانين سنة.

تضمنت الدراسة أثر الحكم المملوكي على واقع المدينة. ففي الجانب العسكري تمكن المماليك من تحرير الساحل الشامي في معركة عين جالوت سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، وطرد الصليبيين منها، وكان ذلك بمثابة نقطة تحول في تاريخ المنطقة. بينت الدراسة التطورات السياسية المهمة التي شهدتها القدس في عهد المماليك، وما رافق ذلك من إجراء تغييرات على نظام الحكم والإدارة في فلسطين، أدى إلى تأسيس نيابة بيت المقدس، وإلى حركة نشطة في الحياة الثقافية. فعلى المستوى الرسمي هذا يعكس سياسة تقوم على العناية بالمسجد الأقصى المبارك، لما يتمتع به من مكانة خاصة وأهمية دينية لدى المسلمين.

الكلمات المفتاحية: القدس

Abstract

The study showed the development of political conditions in Jerusalem from the conquest to the end of the seventh century AH. And it revealed the importance of the Islamic conquest of Medina in the Al-Rashidi era, At the political level is accompanying this documentation of "Al-OmariahAleahda", That established the rules for tolerance for people of other religions

The study examined the impact of the Umayyad rule on the reality of the city by building the Dome of the Holy Rock and the blessed Al-Aqsa Mosque. The study showed the position of the Islamic direction of the city during the Abbasids. The study also reviewed the history of the city in the Fatimid period.

On the level of the development of the political and military situations in Jerusalem, the study dealt with the history of the city and the Crusades, and the accompanying political and religious changes that affected the reality of the city, at a time when Jerusalem was following Fatimid rule in Cairo. The study dealt with the return of the city to the light of Islam in the year (583 AH / 1187 AD) after it was overshadowed by the darkness of the Crusaders for a period of eighty-eight years.

The study included the effect of Mamluk rule on the reality of the city. On the military side, the Mamluks managed to liberate the Palestinian coast in the battle of AinJalut in the year (658 AH / 1260 CE), and expelled the Crusaders from it, and this was a turning point in the history of the region .

The study showed the important political developments that Jerusalem witnessed during the Mamluk era, and the accompanying changes in the system of government and administration in Palestine, which led to the establishment of the Jerusalem Prosecution Office, and to an active movement in cultural life. On the official level, this reflects a policy based on caring for the blessed Al-Aqsa Mosque, because of its special status and religious importance among Muslims.

المقدمة

كان لنزول رسالة الإسلام العظيمة في شبه الجزيرة العربية، وانتشارها إلى البلاد المجاورة، إيذانًا بإحداث تطور حضاري في حياة الأمة العربية، وفي تاريخ الأمم المجاورة لها. كان نصيب القدس في هذا التغيير كبيرًا، انعكست آثاره على واقع المدينة، وعلى تاريخ المجتمع الإسلامي في المنطقة. علاوة على ذلك، تحتل المدينة مكانة مهمة في العقيدة الإسلامية بسبب ما ورد من آيات في القرآن الكريم، وما حفظته السنة النبوية من أحاديث توضح فضائل مدينة القدس، وفضائل معالمها الدينية الخاصة.

اشتملت هذه الدراسة على ثلاثة محاور فضلًا عن ملخص البحث والمقدمة ومشكلة الدراسة وأهميتها وأهدافها والمنهجية المستخدمة. **المحور الأول:** يتناول الفتح الإسلامي للقدس، أثر الحكم الأموي على القدس، القدس في زمن العباسيين، القدس في العصر الفاطمي، بهدف التعرف على تطور الأوضاع السياسية التي مرت بها القدس في تلك العصور، وما رافق ذلك من متغيرات على واقع المدينة.

أما المحور الثاني فقد تناولت فيه: القدس والحروب الصليبية، صلاح الدين والصليبيون: نتائج انتصار حطين، استرداد بيت المقدس والقدس بعد صلاح الدين. في هذا المحور أبرزت الدراسة خطر الحركات الاستعمارية التوسعية التي قام بها الأوربيون في العصور الوسطى، ضد العالم الإسلامي، المعروفة في التاريخ بالحروب الصليبية، وما رافق ذلك من إحداث تغييرات على المنطقة وبخاصة القدس. ومن ثم اتبعته بدراسة مكثفة على المستوى السياسي عالجت فيه تحرير مدينة القدس من قبضة الفرنجة في معركة حطين، وعودة المدينة من جديد لنور الإسلام.

أما في المحور الثالث: فقد استعرضت فيه تطور الأوضاع السياسية في القدس في عصر المماليك، معركة عين جالوت، نيابة بيت المقدس، وفي هذا المحور انتقلت إلى دراسة الجانب السياسي العسكري، بينت فيه أثر الحكم المملوكي على واقع المدينة، من خلال انتصار المماليك على المغول في معركة عين جالوت وتحرير الساحل من قبضة الفرنجة.

ثم تناولت باهتمام تطور الأوضاع السياسية في المنطقة، وما رافق ذلك من إجراء تغييرات إدارية في فلسطين، نتج عنها إنشاء نيابة بيت المقدس، وتنشيط الحياة الثقافية فيها. وقد أنهيت هذه الدراسة بخاتمة شملت النتائج التي توصلت إليها، وقائمة المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في انجازها.

مشكلة الدراسة

أمام هذا الكم من المعلومات عن موضوع الدراسة التي بين أيدينا، وبخاصة أن مادتها العلمية متوفرة تدعو الباحثين لكشفها والاستفادة منها. من هنا كان لزامًا علينا أن نُعيد النظر في قراءة ما هو مطروح على مستوى تطور الأوضاع السياسية وتأثيرها على واقع المدينة منذ الفتح حتى نهاية القرن السابع الهجري، لينال حيزًا واضحًا في الدراسات الحديثة. على هذا الأساس تم وضع الخطة ومنهجها والشروع بالكتابة في محاولة لدراسة تطور الأوضاع السياسية في القدس، والتأكيد على هويتها العربية والإسلامية أمام الهجمات الاستعمارية المتكررة، ورغبة في تعزيز مكانتها الخاصة خلال العصور الإسلامية، وجعلها مركز للحكم على المستوى السياسي كغيرها من المدن الشامية المهمة، بل فاقتها أهمية لمكانتها الروحية والدينية لدى المسلمين.

إن هذا الرأي المتعلق بالقدس الذي نسعى لإثباته في هذه الدراسة، يناقض ما ذهب إليه المستشرقون أمثال برنارد لويس وكوهن من أن فلسطين في العصر المملوكي كانت تتكون من نيابتين فقط. في محاولة لإثبات أن القدس لم تكن نيابة مستقلة، ولم تلق الاهتمام الكافي من حكام المسلمين في العصور الوسطى.

أهمية الدراسة وأهدافها:

تكشف الدراسة التي بين أيدينا عن تطور الأوضاع السياسية في القدس منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية القرن السابع الهجري، بهدف التعرف على الأثر الذي تركته الحكومات الإسلامية على واقع المدينة خلال الحقبة الزمنية المحددة لهذه الدراسة. تنطلق الدراسة من الأهمية الدينية العليا التي يمثلها المسجد الأقصى المبارك لجميع المسلمين.

تؤكد الدراسة على الهوية العربية لمدينة القدس، وثقافتها الإسلامية الأصيلة، وترسخ مكانتها الخاصة في الإسلام، بوصفها مدينة مقدسة ومباركة، وتؤكد الدراسة أيضًا على مدى ارتباطها في الماضي والحاضر والمستقبل بالعالم الإسلامي. تكمن أهمية الدراسة في التعرف على أبعاد ونتائج المتغيرات السياسية والدينية لمدينة القدس في الصراع مع الفرنجة كحركة استعمارية استيطانية. تبين الدراسة اثر الحكم الأيوبي على واقع المدينة، من خلال الانتصار على الفرنجة في معركة حطين وتحرير المدينة.

تكشف الدراسة عن أثر الحكم المملوكي على واقع المدينة وتحرير الساحل من قبضة الفرنجة، واحتفاظ المدينة بطابعها الإسلامي. تهدف الدراسة إلى الكشف عن إجراء تغييرات على نظام

الحكم والإدارة في فلسطين، في العهد المملوكي، وذلك بتأسيس نيابة بيت المقدس وتنشيط الحركة الثقافية فيها.

المنهجية المستخدمة:

في هذه الدراسة اعتمدنا على منهجية علمية، تقوم على الإحاطة بالمصادر، والمراجع، والبحوث ذات الصلة بموضوع الدراسة، وجمع المادة، بهدف الوقوف على تطور الأوضاع السياسية في القدس منذ الفتح حتى نهاية القرن السابع الهجري، ضمن الإطار المحدد لهذه الدراسة. لقد خضعت الدراسة لقواعد البحث العلمي، ومنهج البحث التاريخي من خلال نقد الأحداث، وتحليلها، بهدف الوصول إلى استنتاجات تؤكد على عروبة المدينة، وأهميتها السياسية كمركز حكم ونيابة مستقلة، ومدى ارتباطها بالمسلمين.

المحور الأول: الفتح الإسلامي للقدس

عشية الفتح الإسلامي لمدينة القدس، كانت بلاد الشام تحت حكم الإمبراطورية البيزنطية، وقد أسرى الله بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في القدس، والمسجد الأقصى هو الاسم الإسلامي الذي ورد في القرآن الكريم. قال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} (سورة الإسراء، الآية١).

كانت الصلاة قد فُرضت على المسلمين ليلة الإسراء إلى المسجد الأقصى المبارك. فكان المسجد الأقصى أولى القبلتين، وقد توجه المسلمون وهم في المدينة المنورة في صلاتهم إلى المسجد الأقصى المبارك ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا (البخاري، باب الصلاة/٣٩٩) (العمري، ١٩٧١م،٣١٢-٣١٤) (القسطلاني، ١٩٧١، ٣١) (سلامة، ٢٠٠٧م،٥٢) (إبراهيم، ٢٠٠٩م،٢٣٠).

وفي الأحاديث النبوية الشريفة دعوة للمسلمين إلى شد الرحال إلى المسجد الأقصى المبارك بالقدس. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تُشدُ الرحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد هي: مسجدي هذا والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى) (البخاري،٦٣/٣، ١١٨٩) (السيوطي، ١٩٨٤م،٩٧-٩٨). كل هذه الشواهد تدلُ على أن ما ورد في القرآن الكريم، وأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام، وسيرته النبوية، تحث المسلمين على احترام مكانة المسجد الأقصى المبارك، والمحافظة عليه، وتؤكد على أهميته الدينية، كما تحث على حرية جميع المسلمين، وحقهم في الانتقال إلى الأماكن الإسلامية المقدسة في القدس.

على المستوى السياسي والعسكري من هذه المرحلة التاريخية، بدأت حركة الفتح الإسلامي في بلاد الشام منذ مطلع السنة الثالثة عشرة للهجرة النبوية. فكانت معركة اليرموك بين المسلمين والروم (الإمبراطورية البيزنطية)، أولى موجة الانتصارات التي خاض غمارها الجيش الإسلامي خارج شبه الجزيرة العربية، تجاه قوات منظمة وعريقة في ممارسة الحروب (الطبري، ٣٩٤-٤٠١) (الواقدي، ١٩٩٧م، ١٦٠وما بعدها) (اللحام، ١٩٨٦م، ٢١،٥٩).

بعد حصار طويل، فتحت مدينة القدس على يد أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه (ت١٨هـ/٦٣٩م)، بعد أن جاء الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (ت٢٣هـ/٦٤٤م) إلى القدس وتسلمها من النصارى وكتب لهم العهدة العمرية (الواقدي،١٩٩٧م، ١٦ وما بعدها) (الملاح، ٢٠٠١م، ٢١) (غوانمة، ١٩٩٩م، ١٣)، التي كانت نموذجًا من العقود التي وثقها المسلمون مع أصحاب الديانات الأخرى، وفي المدينة أرست العهدة العمرية قواعد التسامح.

في هذه الحقبة دخلت الجيوش الإسلامية مدينة القدس سنة (١٥هـ/٦٣٦م) بقيادة أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه، فأراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يؤمن للحامية العربية مكانًا تعسكر فيه في القدس، فقصد إلى جبل الصخرة، وبنى مسجدًا بجانب الصخرة المشرفة التي كان قد أسرى بها النبي صلى الله عليه وسلم، فصلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندها، وسُمي المكان باسم المسجد الأقصى، وقبل أن يغادر الخليفة عمر رضي الله عنه المدينة، عين يزيد بن معاوية عليها تحت قيادة أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه (الواقدي، ١٩٩٧م،١٦٠) (السيوطي،١٩٨٢م، ١٩٤).

أثر الحكم الأموي على القدس:

على مستوى تطور الأوضاع السياسية في المنطقة، أصبحت دمشق عاصمة الدولة الأموية، ولقربها من القدس، ولأسباب دينية وسياسية نال بيت المقدس اهتمامًا خاصًا في عهد الدولة الأموية، حيث شرع الخليفة عبد الملك بن مروان بين الأعوام (٦٥هـ/٦٨٥م – ٨٦هـ/٧٠٥م) ببناء قبة الصخرة المشرفة، والمسجد الأقصى المبارك، وبعد وفاته أكمل الخليفة الوليد بن عبد الملك البناء بين الأعوام (٨٦هـ/٧٠٥-٩٦هـ/٧١٥م) (المقدسي، ٢٠٠٩م، ٣٥٠) (الدوري، ١٩٩٢م، ١٣١-١٤٨)، وقد حرص المسلمون منذ ذلك العهد على رعاية المسجد الأقصى المبارك لما يتمتع به من حرمة ومكانة مقدسة في الإسلام (الملاح،٢٠٠١م، ١٧).

في هذه الحقبة من تاريخ القدس، أُطلق على قبة الصخرة، والمسجد القبلي الذي فيه المحراب اسم "المسجد الأقصى"، ولم يُطلق على المسجد اسمًا منفصلًا إلا في أواخر العهد الأموي، فتمت تسميته "مسجد بيت المقدس"، ويُعد ابن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، أول

من استعمل لفظ "الحرم القدسي الشريف" ليضم قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك، والمنشآت الدينية الأخرى الكائنة في ساحاته (العمري، ١٩٧١م، ٣١٢-٣١٤).

شهدت مدينة القدس خلال عهد الدولة الأموية حالة من الاستقرار السياسي، أدت إلى حركة دائبة في المجالين الديني والثقافي، حتى زخرت المدينة بالعلماء. إلى جانب ذلك، كان خالد بن يزيد بن معاوية (ت٩٠هـ/٧٠٩م)، وعمر بن عبد العزيز (ت١٠١هـ/٧٢٠م)، رضي الله عنهما، يحاضرون في صحن بيت المقدس، فمن المعروف أن خالد بن يزيد كان على دراية تامة بعلم تحلية مياه البحر، وكان عالمًا بتركيب الأحماض والماء الثقيل. ويُعد خالد بن يزيد أول من اهتم من العرب بعلم الصنعة (الكيمياء)، وقد ساهم خالد بن يزيد بترجمة بعض الكتب من اللغة اليونانية إلى العربية، وألف فيه بعض الرسائل العلمية (محافظة، ٢٠٠١م، ٨٥).

لقد ساهم الاستقرار السياسي في هذه الحقبة من حكم الدولة الأموية في نشر العلوم الدينية في بيت المقدس، فكان للمرأة دور مهم. خير مثال على ذلك، عالمة في الحديث هي أم الدَرْدَاء الكبْرَى: خَيْرَة بنت أبي حَدْرَد الأسلميّ، (توفيت في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه)، وهي زوجة أبي الدَّرْدَاء: عبد الأنصاري التي تألق نجمها في العصر الأموي، حيث عين الخليفة عبدالملك مولى لها، كان يعمل على راحتها أثناء سفرها من دمشق إلى بيت المقدس.

على أن ذروة ما وصلت إليه مكانة الفقيهة أم الدرداء، خلال الفترات التي كانت تقضيها في بيت المقدس، يتجلى في اهتمام الخليفة عبدالملك بها أثناء تواجده في القدس، إذ كان يرافقها في حرم المسجد الأقصى (المقدسي، ٢٠٠٩م،٢٣٦)(محافظة، ٢٠٠١م، ٨٥).

اهتم المسلمون منذ البداية بالقرآن الكريم. فكان الصحابة يتنافسون في حفظ آياته وفهم مدلولها ومعرفة أسباب نزولها (خليفات، ١٩٩٠،١٢١م)، الأمر الذي كان له الأثر الكبير في العصر الأموي، حيث تم استحداث طريقة في تحفيظ القرآن الكريم في بيت المقدس، أُطلق عليها اسم "الدراسة". تقوم الدراسة على أسلوب التكرار لكل آية، فتطورت الطريقة ليأخذ القارئ بشرح معنى الآية وأسباب نزولها وما فيها من عبر. وفي هذا العصر، اشتهر عدد كبير من علماء الدين في القدس مثل: رجاء بن حيوة، القارئ سليمان بن عبدالله الأنصاري، وائلة بن الأسقع الهوازني والمفسر مقاتل بن سليمان، وغيرهم من العلماء (أبو عليان، ١٩٩٣م،١٥٨).

القدس في زمن العباسيين

على المستوى السياسي تمتعت القدس في بداية العصر العباسي بمكانة كبيرة، فازدادت أهميتها منذ أيام أبي جعفر المنصور العباسي الذي حكم بين الأعوام (١٣٦هـ/٧٥٤م-١٥٨هـ/٧٧٥)، حيث زار المدينة سنة (١٤١هـ/٧٥٨م)، وفي هذه الزيارة حظي الخليفة

المنصور بالصلاة في المسجد الأقصى المبارك (المسعودي، ١٩٨٨م، ٣٠٤). كما بلغت المدينة أيضًا درجة كبيرة من الاهتمام، حين أمر الخليفة المنصور باستبدال صفائح الذهب والفضة التي كانت مرصعة على أبواب المسجد الأقصى المبارك بدنانير ودراهم، وذلك للإنفاق على ما تضرر من بناء المسجد، وربما كان استبدال الصفائح بالنقد لعدم توفره بشكل كافٍ في بيت مال الخلافة في بداية سنوات حكمها (إبراهيم، ٢٠٠٩م، ٥٩).

في هذه الحقبة من استعراض الأحداث التاريخية والتطورات السياسية في المنطقة، زادت مكانة القدس في نظر العالم الإسلامي والمسيحي، من خلال العلاقات السياسية والتجارية التي قامت بين الخليفة هارون الرشيد الذي حكم بين الأعوام (١٧٠هـ/٧٨٧م-١٩٣هـ/٨٠٩م)، وشارلمان (Charlemagne)، ملك الإمبراطورية الرومانية المقدسة الذي حكم بين الأعوام (١٨٣هـ/٨٠٠- ١٩٨هـ/٨١٤م). كل ذلك يوضح مكانة القدس في عهد هارون الرشيد، حيث كان شديد التسامح والاعتدال. فقد عامل الرشيد نصارى المدينة معاملة حسنة، فسمح للإمبراطور شارلمان بترميم الكنائس في المدينة، وتعهد الرشيد بحماية الحجاج النصارى الذين يأتون من أماكن متعددة على مستوى العالم، لزيارة الأماكن المقدسة المسيحية في مدينة القدس (Bucker, 1931, 170) (العارف، ١٩٩٩م، ١٢٠).

يبدو لتعزيز قبضتهم السياسية وإحكامها على المنطقة، توالى اهتمام خلفاء بني العباس بالمسجد الأقصى المبارك بعد الخليفة الرشيد، حيث قام الخليفة المأمون العباسي بزيارة بيت المقدس سنة (٢١٥هـ/٨٣٠م)، وأمر بإصلاحات في قبة الصخرة المشرفة، بإشراف أخيه أبي إسحاق- الخليفة المعتصم فيما بعد- الذي كان نائبه على بلاد الشام، وقد بلغت الترميمات التي أجراها الخليفة المأمون من الضخامة دفع البعض أن يعزو البناء كله للمأمون (الحموي، ١٩٦٥م، ٥).

وعلى أية حال، عندما انتهى العُمال من الترميم سنة (٢١٦هـ/٨٣١م)، ربما أرادوا أن يجاملوا الخليفة المأمون العباسي، فاستبدلوا اسم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، الباني الحقيقي لقبة الصخرة المشرفة، بكتابة اسم الخليفة المأمون على الفسيفساء الموجودة على القبة، ولكنهم غفلوا عن تغيير السنة التي حدث فيها البناء الأول في العهد الأموي. وفي هذا السياق، كان المستشرق De Vohueh، أول من اكتشف ذلك الخطأ التاريخي، أثناء زيارته لمدينة القدس (العارف، ١٩٩٩م، ١٢٠)(De Vohueh, 1861, 6-85).

يبدو أن سياسة الدولة العباسية خلال تلك الحقبة، كانت تقضي التأكيد على ضمان الاعتراف الكامل بسيادتها على أراضيها، لذلك كانت القدس مركزًا رئيسًا ومهمًا يجذب أنظار خلفاء

الدولة العباسية الذين زاروا المدينة، ومنهم الخليفة أبو عبد الله محمد المهدي ابن الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور الذي تولى الخلافة بين الأعوام (١٥٨هـ/٧٧٥م- ١٦٩هـ/ ٧٨م).

وربما يكون من المناسب أن ننوه هنا بالإشارة إلى العبر والمعاني في زيارة الخليفة المهدي لمدينة القدس، فلما وصل المهدي إلى الشام يريد القدس، كان قد دخل المسجد الأموي في دمشق، بصحبته أبو عبدالله الأشعري. فقال المهدي:" يا أبا عبدالله سبقنا بني أمية بثلاث فقال: ما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: الأولى، هذا البيت (المسجد الأموي). والثانية (نيل الموالي)، فإن لبني أمية موالي ليس لنا مثلهم. والثالثة هي (عمر بن عبدالعزيز)، لا يكون فينا والله مثله أبدا. وعندما وصل الخليفة المهدي إلى مدينة القدس، وعندما شاهد (قبة الصخرة المشرفة) قال: يا أبا عبدالله، وهذه رابعة" (إبراهيم، ٢٠٠٩م، ٥٩).

في تلك الحقبة تطور الوضع السياسي في القدس بشكل جذري، بسبب تعقيدات سياسية ظهرت في المنطقة على المستوى الداخلي والخارجي. هو أن تأثير العباسيين في القدس في عهدهم الأخير، كان ضئيلًا بسبب بعُد المسافة، ولغيرها من الأسباب تتعلق بانتقال السلطة فيها من العباسيين إلى الطولونيين في مصر سنة (٢٥٤هـ/٨٦٨م)، وفي الاستيلاء على الشام فيما بعد. ومن ثم انتقلت السلطة من العباسيين إلى الإخشيديين في مصر سنة (٣٢٣هـ/٩٣٥م)، وبعد ذلك ضمت الشام. ومن ثم استولت الخلافة الفاطمية على مصر سنة (٣٥٨هـ/٩٦٩م)، وعلى الشام، فأصبحت القدس تحت نفوذهم. (العارف، ١٩٩٩م، ١٢٣).

القدس في العصر الفاطمي

تطورت الأوضاع السياسية في مصر مع وفاة كافور (ت٣٥٧هـ/ ٩٦٨م)، آخر ملوك بني الإخشيد فيها، واضطربت الحياة السياسية، فوقع اختيار كبار رجال البلاط الإخشيدي في مصر على أبي الفوارس أحمد- حفيد الإخشيد- على حكم مصر، ولم يكن حفيد الإخشيد قد تجاوز الحادية عشرة من عمره، وما لبث أن استقل الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات، بتدبير أمور ولاية مصر.

وسط هذا الخضم من تضارب المصالح، أصبحت مصر في عهد ابن الفرات مسرحًا للفوضى، بل ساءت في أيامه الأوضاع المالية، وحل بالبلاد الوباء، والقحط من جراء انخفاض منسوب مياه النيل، فعجزت حكومة ابن الفرات عن دفع رواتب الجند، مما دفع أهل الرأي في مصر على الكتابة إلى الخليفة المعز لدين الله الفاطمي (حكم بين الأعوام ٣٤١هـ/٩٥٢م- ٣٦٥هـ/٩٧٥م)، في تونس يطلبون إليه القدوم إلى مصر، لإنقاذها من

الفوضى التي انتشرت فيها منذ أن توفي كافور الإخشيدي (كاشف، ١٩٥٠م، ٢٦٥)، و(السرور، ١٩٩٥م، ٦٣). وإن عملية التواصل بين أهل الرأي في مصر، والخليفة المعز لدين الله الفاطمي، دليل على انتشار، وتغلغل المذهب الإسماعيلي في مصر، على حساب الخلافة العباسية في بغداد، بحيث أصبح الاستيلاء على مصر، هدف استراتيجي للخلافة الفاطمية القائمة في تونس.

إن حالة من المشكلات والفوضى، كانت قد ظهرت في مصر، استغلها الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، حيث قام بتكليف جوهر الصقلي بقيادة الحملة العسكرية من مدينة القيروان للاستيلاء على مصر. ولما وردت إلى الفسطاط أخبار وصول جوهر إلى الإسكندرية واستيلائه عليها، شاور الوزير جعفر بن الفرات أصحاب النفوذ من أهلها، فاستقر رأيهم على مفاوضة القائد جوهر في شروط التسليم، وطلب الأمان على أرواح المصريين وأملاكهم.

وفي الثامن عشر من شهر رجب سنة (٣٥٨هـ/٩٦٩م)، التقى الوفد المصري بالقائد الفاطمي جوهر عند تروجة (تروجة هي إحدى القرى بمحافظة البحيرة)، وانتهت المفاوضات بين الطرفين بكتاب الأمان الذي كتبه جوهر الصقلي وأعلنه للمصريين (المقريزي، ١٩٤٨م، ١٤٧-١٥٣)، (السرور، ١٩٩٥م، ٦٤).

من الضروري أن نؤكد على أهمية المرحلة التالية من الأطماع الفاطمية التوسعية في المنطقة، ونبدأ بالحملة العسكرية التي أرسلوها إلى بلاد الشام بقيادة جعفر بن فلاح، حيث وصل جعفر هذا إلى مدينة الرملة في فلسطين، وكان بها الحسن بن عبدالله بن طغج الأخشيد، فقاتله جعفر وتغلب عليه، ومن ثم استولى على فلسطين كلها، وجمع أموالها، ومن ثم استولى على الشام، وأقام الخطبة فيها إلى الخليفة المعز لدين الله الفاطمي سنة (٣٥٩هـ/٩٦٩م)، فقُطعت الخطبة العباسية فيها، ومن ثم أصبح الفاطميون خلفاء مصر والشام وبلاد المغرب معًا (العارف، ١٩٩٩م، ١٣٠).

وحيال التهديد الفاطمي لبلاد الشام، أصبحت القدس تابعة للدولة الفاطمية في مصر، ومع ذلك حظيت باهتمام كبير. وتشير الأعمال المتقنة التي قام بها الفاطميون في القدس، إلى أنهم لم يكونوا أقل حرصًا ممن سبقهم من الحكام على تأكيد حرمة بيت المقدس. فصورة القدس كما وصفها الرحالة الفارسي ناصر خسرو على عهد الفاطميين، تعطي فكرة واضحة عن أهمية المدينة في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، حينما دخلها ناصر خسرو في اليوم الخامس من شهر رمضان سنة (٤٣٨هـ/١٠٤٧م) فوصفها وصفًا دقيقًا (خسرو، ١٩٧٠م، ٦٧-٦٩).

وفي وصف الرحالة ناصر خسرو للقدس دليل واضح على مكانتها الدينية، والدور الحضاري التي كانت تضطلع به خلال تلك الحقبة من تاريخها. فهو يضيف أن سكان البلاد المجاورة كانوا يسمونها بيت المقدس، ويسمونها أيضًا القدس. والمدينة قائمة على تلال. تعيش على مياه الأمطار. ويحيط بها سور منيع من الحجارة. وللسور أبواب حديدية. يقطن فيها نحو عشرون ألفًا من السكان (خسرو،١٩٧٠م،٦٧-٦٩).

علاوة على ذلك، فيها أبنية عالية وأسواق جميلة. أسواقها كلها مرصوفة بالبلاط. وفيها صناع كثيرون. ولكل صنعة سوق خاص بها. والمسجد قائم في الحي الشرقي إلى الجنوب من المدينة. وفيها بيمارستان (دار المرضى) بديع جدًا، وينفق عليه مبالغ طائلة تأتي عن طريق البر والإحسان. ويعالج فيه عدد كبير من المرضى. والأطباء يتقاضون راتبًا مقطوعًا (خسرو،١٩٧٠م،٦٧-٦٩) (العارف،١٩٩٩م،١٣٨-١٤١)(أبو عليان،١٩٩٣م، ١٦٥).

هذا فضلًا عن مكانة المدينة في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي الذي حكم بين الأعوام (٤٢٧هـ/١٠٣٥م- ٤٨٧هـ/١٠٩٤م). ففي عهده كثرت الزلازل في مصر والشام، فانثلم سور القدس، وانشقت الصخرة المشرفة (العارف، ١٩٩٩م، ١٣٦). وسرعان ما أمر الخليفة المستنصر بالله سنة (٤٥٨هـ/١٠٦٦م)، بتجديد الواجهة الشمالية للمسجد الأقصى المبارك، وسجل هذا التجديد في كتابة كوفية، حفرت بالحجر بأعلى الواجهة الشمالية للرواق الأوسط هذا نصها: بسم الله الرحمن الرحيم نصها:{وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} (سورة هود، الآية ٨٨). أمر بعمل هذا الوجه مولانا وسيدنا معد بن أبي تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين، في نظر الأمير الأجل الأعز علم الملك نصر الدولة ذي الفضيلتين. وقد جرى ذلك على يد الفاضل أبي الحسين، عبدالرحمن بن الحسن بن علي الأنصاري المعروف بالأجوف سنة ثمان وخمسين وأربعمائة" (العارف، ١٩٩٩م، ١٣٦-١٣٧).

ومن المتناقضات أنه حدث تطور في الأوضاع السياسية في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي حكم بين الأعوام (٣٨٦هـ/٩٩٦م-٤١١هـ/١٠٢٠م)، تجاه القدس، حين أصدر أمره سنة (٤٠٠هـ/١٠٠٩م) بهدم كنيسة القيامة، الأمر الذي أدى إلى هجرة بعض النصارى إلى بلاد الروم من جراء سياسة التشدد، والمضايقة ضدهم، سواء ما صدر من الخليفة الحاكم بأمر الله نفسه، أو ما صدر من بعض حكام الدولة الفاطمية تجاه النصارى في القدس (محافظة، ٢٠٠١م، ١٣٢) (حسن، ١٩٥٨م، ١٨٦،١٩٥).

إلى جانب ذلك، لم تكن سياسة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله المتشددة هي القاعدة الثابتة، بل كانت مؤقتة، وسرعان ما تراجع عنها من خلال عقد معاهدات سلام مع البيزنطيين في أواخر عهده. ففي مدينة القدس تم السماح للنصارى بإعادة بناء كنيسة القيامة (تقع كنيسة القيامة داخل أسوار البلدة القديمة في القدس، وهي أول كنيسة بنيت على مستوى العالم عام ٣٢٦م، في أيام الملكة هيلانة Helena التي توفيت سنة ٣٢٧م، وهي أم الإمبراطور قسطنطين الأول Constantine 1 الذي توفي سنة ٣٣٧م).

علاوة على ذلك، وافقت لهم الدولة الفاطمية على تلقي المساعدات المالية من أوروبا، كما وافقت الدولة الفاطمية على شرط الإمبراطورية البيزنطية بتشييد حي خاص للنصارى في القدس، عُرف بحي البطريرك، إذ تشكل كنيسة القيامة مركزه الرئيس، فأصبح سكان هذا الحي تحت السلطة الخاصة لبطريرك المدينة المقدسة. (ابن القلانسي،١٩٨٣م، ٩٠) (محافظة، ٢٠٠١، ١٣٢) (رباح،٢٠١٠م، ٨١).

المحور الثاني: القدس والحروب الصليبية:

إن التهديد الصليبي الذي ظهر في هذه الحقبة الحرجة من تاريخ المنطقة، وهذه النزعة العدائية المتنامية ضد العالم الإسلامي بين الأعوام (٤٨٧هـ/١٠٩٥م-٦٩٠هـ/١٢٩١م)، لم تكن في واقع الأمر إلا استمرارًا لسياسة الإمبراطورية الرومانية-البيزنطية الاستعمارية في المنطقة وبخاصة في مدينة القدس (خليفات،١٩٩٠، ١٧-٢٧)(حسين، ١٩٩٨م، ١٠-١٢).

إلى جانب ذلك، فأن أطماع الحركات الصليبية تعود إلى فترات تاريخية سابقة، حيث عمل رجال الدين على إلغاء التناقض ما بين مبادئ المسيحية وممارسة الحرب، فأوجدوا ما يسمى "مصطلحات الحرب المقدسة" و"الحرب العادلة" في القتال ضد المسلمين (Brundage, 1989, 23-24)، فبرز مثل هذا الاتجاه في عهد البابا الإسكندر الثاني (Pope Alexander II) بين الأعوام (٤٥٣هـ/١٠٦١- ٤٦٥هـ/١٠٧٣م)، الذي أصدر "صكوك الغفران" لكل من شارك في الحملة العسكرية التي قادتها الكنيسة ضد مسلمي الأندلس سنة (٤٥٥هـ/١٠٦٤م) (Brundage, 1989, 23-24).

وأمام هذا الشعور بالقوة، تطورت الأوضاع السياسية في عهد البابا جريجوري السابع (Gregory VII) بين الأعوام (٤٦٥هـ/١٠٧٣- ٤٧٧هـ/١٠٨٥م)، ويبدو أن جريجوري هو من صاغ فكرة الحرب المقدسة في شكلها النهائي، فقد حاول أن يستقطب الفرسان، فاستخدم لهذا الغرض المصطلح القديم "قوات المسيح" و "جيش المسيح"، فكان يجسد الفكرة القائلة

بضرورة استخدام القوة لحماية شعب المسيح من الأعداء بوصفها سببًا عادلًا لشن الحرب ضد المسلمين (Brundage, 1989, 28).

باختصار، تبنى البابا أوربان الثاني (Pope Urban II) بين الأعوام (٤٨٠هـ/١٠٨٨–٤٩٢هـ/١٠٩٩م) فكرة الدعوة إلى الحروب الصليبية ضد المشرق الإسلامي (Vasiliev, 1961, 397)، حيث سارع إلى عقد اجتماع واسع في مدينة كليرمونت (Clermont) (تقع كليرمونت في الجزء الجنوبي الشرقي من فرنسا)، فألقى البابا أوربان الثاني على الحضور باللغة الفرنسية أقوى الخُطب أثرًا في تاريخ العصور الأوربية الوسطى من حيث الحماسة الدينية. (Tierney, 1978, 136) (ديورانت، ٢٠١٣م، ١٤–١٥).

وربما كان من المفيد التذكير بحقيقة أن البابا أوربان الثاني ركز في خطابه الشهير على ما أسماه بالخطر الإسلامي على أوروبا من جهة القسطنطينية (والقسطنطينية باللاتينية هي Constantinopolis، وبالتركية هي إسطنبول İstanbul).

فكانت القسطنطينية عاصمة للإمبراطورية الرومانية بين الأعوام (٣٣٠م–٣٩٥م)، وعاصمة الإمبراطورية البيزنطية بين الأعوام (٣٩٥م–٨٥٦هـ/١٤٥٣م)، وعاصمة الخلافة العثمانية بين الأعوام (٨٥٦هـ/١٤٥٣م–١٣٤٢هـ/١٩٢٤م). ومن هذه الزاوية أكد أوربان الثاني على أن المسيحيين في المشرق، يتعرضون للظلم من المسلمين، وأن الأديرة والكنائس، أصابها الدمار، فحث السامعين على المبادرة بالتحضير للانتقام من المسلمين (ديورانت، ٢٠١٣م، ١٥–١٦).

في خضم ما حدث بالمنطقة في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي من مظاهر التفكك السياسي، نشبت الحروب المعروفة في التاريخ بالحروب الصليبية (Crusades) التي شنها المسيحيون على المسلمين، بهدف السيطرة على المنطقة وبخاصة القدس. فاجتمع من الأسباب الدينية والاقتصادية ما أدى إلى نشوب الحروب الصليبية (العريني، ١٩٧٩م، ١٢–١٣). من الواضح أن الدافع الاجتماعي كان سببًا من أسباب الحروب الصليبية، حيث وجدت الطبقة الكادحة في أوروبا فرصتها للتخلص من نظام العبودية السائد آنذاك (المعاضيدي، ١٩٨٦م، ٢٣–٢٤).

كان التطلع إلى خيرات المشرق الإسلامي في الجانب الاقتصادي، من أقوى دوافع الحروب الصليبية بعد الدافع الديني. حيث عبر البابا أوربان الثاني في خطابه عن أهمية العامل الاقتصادي بالنسبة لواقع أوروبا قائلًا:"إن الأرض التي تسكنوها الآن تحيط بها البحار الضيقة على سكانها الكثيرين، وتكاد تعجز عن كفايتهم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم

بعضًا، ويلتهم بعضكم بعضًا، وتتحاربون، ويهلك الكثيرون منكم في الحروب الداخلية، وإنَّ أورشليم (القدس) أرض لا نظير لها بل هي فردوس المباهج" (ديورانت، ٢٠١٣م، ١٥-١٦).

ولم يمض وقت طويل على مستوى تطور الأوضاع السياسية تجاه القدس، حيث بدأت الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي، عندما استنجدت الإمبراطورية البيزنطية بالغرب الأوروبي، نتيجة ترنحها تحت ضربات السلاجقة، حلفاء الدولة العباسية الذين لعبوا دورًا مهمًا في تاريخ الحروب الصليبية والصِّراع الإسلامي البيزنطي (حسين، ١٩٩٨م، ١١-١٣).

وحيال التهديد الصليبي المتجدد على العالم الإسلامي، وأثناء مسير قواتهم من القسطنطينية، تمكنوا من السيطرة على نيقيه (تقع نيقية على ساحل الأناضول الغربي عند بحر مرمرة تسمى إزنيق حديثًا) عاصمة السلاجقة، سنة (٤٩٠هـ/١٠٩٧م)، وذلك بعد ستة عشر عامًا من فتح السلاجقة لها (Oman,1924, 239). يبدو أن التقدم العسكري الصليبي، لم يكن بهدف احتلال أسيا الصغرى، إنما كان مجرد تصفية للقوى السياسية التي كانت تواجه القوات الصليبية في طريقها إلى القدس.

وفي حقيقة الأمر كان ذلك تدبيرًا موفقًا من القوات الصليبية التي أرادت أن تسلك هذا الطريق للقضاء على السلطنة السلجوقية؛ العدو التقليدي للدولة البيزنطية في تلك الحقبة. وبعد فترة وجيزة تمكن بلدوين الأول (Baldwin I) أحد قادة الحملة الصليبية الأولى، الذي عاش بين الأعوام (٤٤٩هـ/١٠٥٨-٥١١هـ/١١١٨م) من تأسيس كونتية الرها (والرها باللاتينية هي Comitatus Edessanus تقع الرها في جنوب شرق تركيا) سنة (٤٩١هـ/١٠٩٨م) في الحملة الصليبية الأولى، فأصبحت الرها أول إمارة صليبية تتأسس في المشرق الإسلامي، ولم يلبث الصليبيون أن أضحوا طبقة عسكرية حاكمة، تحكم عناصر أرمنية شرقية تعمل في الزراعة والتجارة (Albirt, 1841/1966 ,443).

ولم ينته الأمر عند هذا الحد. ففي ليلة ٢٨ جمادى الآخرة سنة ٤٩١هـ / ٢ حزيران ١٠٩٨م، استولى الجنود الصليبيون على مدينة أنطاكية (تقع أنطاكية اليوم في لواء إسكندرون في تركيا)، في صباح اليوم التالي بعد أن فُتحت أبوابها أمامهم. وتعرض المسلمون فيها للسلب والنهب والقتل (ابن الأثير،١٩٨٩م، ٤١٧). وهكذا، تأسس في أنطاكية الإمارة الصليبية الثانية التي كانت تتبع للسلطنة السلجوقية، فسقطت المدينة دون أن يصلها مدد، بل على العكس، نجد أن هزيمة السلاجقة أفرحت الدولة الفاطمية في القاهرة، بسبب الخلاف السياسي والمذهبي مع السلاجقة حلفاء الدولة العباسية.

ليست هذه مع ذلك نهاية المطاف. فقد تابعت القوات الصليبية مسيرها نحو القدس، في وقت كانت المدينة تحت النفوذ الفاطمي، حينما استعاد الفاطميون سيادتهم على المدينة من الأراتقة (نسبة إلى أرتق بن أكسب، وهم قبائل تركمانية اشتركت في بناء الدولة السلجوقية)، وتم تعيين الأفضل افتخار الدولة واليًا على القدس في العاشر من شهر شوال سنة (٤٩١هـ/١٠٩٨م) (ابن القلانسي،٢٢١،١٩٨٣) (ابن الأثير،١٩٨٩م،٤٢٥) (محافظة، ٢٠٠١م، ١٣٨-١٤٠).

بعد وقت قصير وصلت الحملة الصليبية أسوار بيت المقدس. كان ذلك في الخامس عشر من شهر رجب سنة ٤٩٢هـ الموافق السادس من شهر يونيو ١٠٩٩م. ولم يتوقف سيل الضغوطات والعمليات العسكرية. فبدأ الحصار الصليبي المُحكم حول القدس في اليوم التالي، حيث أخذوا يقصفون المدينة، معتمدين على عدد كبير من آلات الحصار العسكرية، التي كانوا قد احضروها معهم (GestaFancorumm, 1967, 195).

ولم يملك المسلمون داخل المدينة، إلا محاولة المقاومة اليائسة. وبعد أسبوع من حصار القدس، وصلت إلى يافا بعض السفن القادمة من أوروبا تحمل المؤن، والسلاح، وبعض الجنود، وكان لهذه الإمدادات اللوجستية، أكبر الأثر في تثبيت أقدام الصليبيين في المنطقة وبخاصة في مدينة القدس (Heyed, 1885, 134-135).

إن أخطر ما في هذا الموقف هو، تصاعد الحصار على القدس ضراوة وقوة، ومرت الأيام الصعبة، والقاسية، والعالم الإسلامي يشاهد ما يحدث للمدينة المقدسة في صمت. وبمضي شهر كامل في الوقت الذي كانت فيه الحامية الفاطمية محصورة داخل الأسوار (Chalandon,1924, 264-270)، فأصبح الموقف حرجًا للغاية، حيث وصلت بعض الأخبار تفيد أن الفاطميين أخرجوا جيشًا من مصر لإنقاذ القدس، فسارع الصليبيون الخطوات لكي يُسقطوا المدينة قبل وصول مساعدات عسكرية للمسلمين (Runciman,1951, 283-284).

في سبيل القضاء على المقاومة الإسلامية داخل أسوار القدس، صنع الصليبيون بُرجين خشبيين للارتفاع فوق سطح خطوط الدفاع. وبدأ الهجوم الصليبي باستخدام الأبراج، وأحرق المسلمون البرج الأول باستخدام السهام المشتعلة (ابن الأثير، ١٩٨٩م، ١٩).

غير أن القوات الصليبية استطاعت الضغط على المدينة باستخدام البرج الثاني، وعبر جنودهم فوق الأسوار إلى داخل المدينة. واستطاعوا فتح الأبواب من الداخل، ومن ثم اقتحمت القوات الصليبية أسوار المدينة المقدسة (أبو المحاسن، ١٩٨٢م ١٤٨، ١٤٩) (ابن القلانسي، ١٩٨٣، ٢٢٢).

من الأهمية بمكان التأكيد على ما وصلت فيه الخصومات السياسية والمذهبية بين حكام المسلمين في مصر، والشام، وبغداد، ذروتها في هذه الحقبة، الأمر الذي أدى إلى سقوط مدينة القدس في أيدي القوات الصليبية في الثاني والعشرين من شهر شعبان سنة ٤٩٢هـ الموافق الخامس عشر من شهر يوليو سنة ١٠٩٩م (ابن القلانسي،١٩٨٣م، ٢٢٥) (ابن الأثير،١٩٨٩م، ١٩) (عاشور، ١٩٧١م، ٢٤١) (Albirt, 1841/1966, 512–523).

صلاح الدين والصليبيون: استرداد بيت المقدس:

من الضروري أن نؤكد على أهمية الحقبة التالية من النزاع المتواصل في المنطقة على عهد الدولة الأيوبية، التي امتد حكمها بين الأعوام (٥٦٩هـ/١١٧٤–٦٤٧هـ/١٢٥٠م). فما شهده العالم الإسلامي في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي من حركة، تتمثل فيما هو معروف بالحروب الصليبية، ترتب عليها تأسيس أربع إمارات صليبية في المنطقة: الرها وإنطاكية وطرابلس. وبيت المقدس موضوع دراستنا هذه.

إن الحق لا يغني عن السياسة، وبناء الإستراتيجية، والقوة، والوحدة. من هنا نجح صلاح الدين الأيوبي بين الأعوام (٥٦٩هـ/١١٧٤م–٥٨٨هـ/١١٩٣م)، في بناء، وتوحيد مصر، وبلاد الشام، وجزء من العراق في دولة إسلامية واحدة، إذا ما استثنينا سيطرة الصليبيين على مدينة القدس وقلعتي الكرك والشوبك في جنوب الأردن، ناهيك عن مدن الساحل الشامي، التي تمتعت بمكانة إستراتيجية مهمة للصليبيين، الأمر الذي جعلهم على اتصال مباشر مع الغرب الأوروبي (الغامدي، ١٩٨٥م، ١٥٧)(العريني، ١٩٧٩م، ٥،٧٢).

إزاء تطور الأوضاع السياسية في القدس في هذه الحقبة، استغل صلاح الدين الأيوبي الصراع الذي حدث بين الأمراء الصليبيين على عرش "مملكة بيت المقدس اللاتينية"، عندما أصبح الأمير الفرنسي غي دي لوزينيان (Guy de Lusignan) (عاش بين الأعوام ٥٤٤هـ/ ١١٥٠م– ٥٩٠/١١٩٤م) ملكًا على مملكة بيت المقدس في سنة (٥٨٢هـ/١١٨٦م)، عن طريق زواجه من الأميرة سيبيلا (Sibylla) أخت الملك بلدوين الرابع، فلم يكن بعض الأمراء راضيين عن تولي الأمير لوزينيان مقاليد العرش (الزبدة، ٢٠٠٠م، ١٥٦–١٥٧).

ولم يكن يخفى على أحد الخلاف السياسي الذي حدث بين ريمون دو تولوز(Raymond Toulouse) أو ريمون دو سان جيل (Raymond de Saint–Gilles) الذي عُرف لدى المؤرخون العرب في العصور الوسطى باسم ريموند الصنجيلي، وبين القائد رينولد شاتيون (Renaud de Châtillon) الذي أصبح أميرًا على الكرك (لعبت قلعة الكرك في جنوب الأردن دورًا مُهمًا في الحقبة الصليبية بالتحكُّم بطرق المواصلات بين الشام من جهة، والحجاز

ومصر من جهة أخرى) سنة (٥٧٢هـ/١١٧٧م)، حيث استغل صلاح الدين الأيوبي، النزاع القائم بينهما في تأليب طرف على الآخر(الغامدي، ١٩٨٥م، ١٧٦).

من الواضح أن تحالف صلاح الدين الأيوبي مع ريموند الصنجيلي، كان من بين الأسباب التي مكنته من تحرير بيت المقدس لاحقًا (الغامدي، ١٩٨٥م، ١٧٦). وفي سبيل ذلك لم يتوان صلاح الدين الأيوبي عن عقد هدنة مع بوهيمند الثالث (Bohemondlll)، أمير أنطاكية الذي حكم بين الأعوام (٥٥٨هـ/١١٦٣- ٥٩٩هـ/١٢٠١م)، شملت حماية منطقة الجليل بفلسطين، الأمر الذي مهد الطريق للسلطان صلاح الدين للعبور ما بين الأردن وفلسطين (طقوش، ١٩٩٩م، ١٤٢-١٤٣).

حدث خلال فترة الصراع في" مملكة بيت المقدس اللاتينية" في المرحلة التي سبقت تحرير القدس على يد صلاح الدين، أن ظهر على الساحة السياسية، حزب تألف من الفرسان الداوية الذين أطلق عليهم اسم "الهيكليين"، وهم حركة دينية متطرفة اتصفت بالنزعة العدوانية للمسلمين، فغلبت عليهم الروح القتالية، وقد ترأس هذا الحزب رينولد شاتيون بعد أن تزوج عام (٥٧٢هـ/١١٧٧م)، من الأميرة "ستيغاني دي ميلي" (Stephanie de Milli)، التي كانت الوريثة الشرعية لقلعتي الكرك، والشوبك، في جنوب الأردن (الزبدة، ٢٠٠٠م، ١٤٧) (محافظة،٢٠٠١م، ١٩٦).

ومن الطبيعي أن يثير التقارب في العلاقات، ما بين صلاح الدين، وبوهيمند الثالث، غضب أمير الكرك رينولد شاتيون الذي كان في هدنة مع صلاح الدين، بموجبها تكفل حماية قوافل المسلمين التجارية ما بين مصر وبلاد الشام، مقابل حصول شاتيون على نظام ضريبي متفق عليه بينهما (ابن واصل، ١٩٥٧م، ٨٥). وكانت الصعوبة أكبر، عندما أقدم رينولد شاتيون على نقض هدنته مع صلاح الدين في أواخر عام (٥٨٢هـ/١١٨٦م)، وقد تمثل ذلك بقطع الطريق الواصل بين مصر والشام، نتيجة طموحه الجارف الذي دفعه للهجوم على قافلة تجارية للمسلمين قادمة من القاهرة إلى دمشق، واستولى عليها، فقتل، وأسر البعض (ابن الأثير، ١٩٨٩م، ١٨-٢٠).

وفي حقيقة الأمر، نحو استبعاد خيار المواجهة، افتتح صلاح الدين الأيوبي جولة المفاوضات الأولى نحو إرادة التسوية مع غي دي لوزينيان، ملك بيت المقدس شاكيًا ومطالبًا بتدخله لردع رينولد شاتيون، بهدف إطلاق أسرى المسلمين، ورد أموالهم، وذلك دون اللجوء إلى استخدام القوة العسكرية (ابن واصل، ١٩٥٧م، ٢٥). إلا أن السلطان صلاح الدين، كان يعتقد بأن ما لم ينجح في تحصيله عن طريق المفاوضات، يمكن تحصيله عن طريق استخدام السلاح.

ووفق الظروف المتاحة، فشل صلاح الدين في استرجاع القافلة، على الرغم من وساطة ملك مملكة بيت المقدس بينهما، حيث دب الخلاف ما بين رينولد شاتيون، والملك الصليبي الذي بدأ يشكك في أطماع رينولد شاتيون الاستقلالية، ورغبته بالانفراد بالحكم (ابن واصل، ١٩٥٧م، ٢٥).

بالتأكيد، شكلت تحالفات صلاح الدين السياسية مع ريموند الثالث (Raymond III) أمير طرابلس بين الأعوام (٥٨٣هـ/١١٥٢م-٥٤٦هـ/١١٨٧م)، وبوهيمند الثالث النواة الأولى لنقطة الانطلاق نحو معركة حطين، وتحرير بيت المقدس. فمن الطبيعي أن يتيح هذا الأمر المجال واسعًا للسلطان صلاح الدين للتغلغل في السياسة الداخلية الصليبية، وأن يقف في مواجهة مملكة بيت المقدس اللاتينية، التي فقدت سند الدعم من طرابلس وإنطاكية، وهكذا تمكن صلاح الدين من شق الصف الصليبي (طقوش، ١٩٩٩م، ١٤٣).

نتائج انتصار حطين:

على مستوى تطور الأوضاع السياسية والعسكرية في المنطقة، كانت معركة حطين واحدة من أهم المعارك في التاريخ الإسلامي، فكانت لها نتائج ومتغيرات استمرت لعدة قرون. في تلك الحقبة، ومع تراكم المؤشرات على غياب أي إرادة سلام حقيقية مع الاحتلال الصليبي في القدس، عبرت الجيوش الإسلامية نهر الأردن جنوب طبريا، وسارت في الجانب الجنوبي الغربي من طبريا، ومن ثم استولت عليها، وقطعت طريق القوات الصليبية في الوصول إلى الماء في محاولة لإجبار القوات الصليبية على النزول للاشتباك معهم.

وفي قيظ شديد، ونقص مياه الشرب في صفوف القوات الصليبية، انتصر المسلمون في هذه المعركة التي وقعت حول جبل حطين الذي يبعد عن مدينة طبريا نحو تسعة كيلومترات في الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ الموافق الرابع من شهر تموز لعام ١١٨٧م (ابن شداد،٢٠٠٣م، ٧٥).

شكلت معركة حطين، نقطة بداية جديدة لقلب موازين القوى في المنطقة، وأظهرت التفوق الإسلامي على القوة الصليبية، حيث تمكن السلطان صلاح الدين من أسر ملك مملكة بيت المقدس اللاتينية غي دي لوزينيان، وأُرسله إلى قلعة دمشق، يرافقه القاضي ابن أبي عصرون (ابن واصل، ١٩٥٧م، ١٩٤).

ومن الطبيعي أن يتيح هذا الانتصار الفرصة المناسبة أمام صلاح الدين الأيوبي، لينتقم من رينولد شاتيون، فأمر بقتله، نظرًا للعداء العلني الذي صدر منه بحق المسلمين (ابن الأثير،١٩٨٩م، ٥٣٨). وقد حققت معركة حطين نتائج كبيرة، حيث تمكن الجيش الإسلامي

من التفوق على أكبر حركة استعمارية شهدها العالم الإسلامي في العصور الوسطى، وتحرير بيت المقدس (طقوش، ١٩٩٩م، ٥٣).

يبرهن على ذلك عودة القدس لنور الإسلام من جديد، بعد أن خيم عليها ظلام الصليبيين الدامس نحو ثمان وثمانين سنة، ذلك أن المسلمين امتلأت نفوسهم حسرة على ضياع المدينة، إلا أن حرمتها جعلتها رمزًا للجهاد ضد الفرنجة (العسلي، ١٩٩٢م، ٢٠٥).

إن إعادة القدس المكللة للإسلام على يد صلاح الدين الأيوبي، كانت موضوع أول خطبة جمعة ألقيت في المسجد الأقصى المبارك، فاشتد التنافس بين علماء الدين للفوز بشرف إلقاء الخطبة (العسلي، ١٩٩٢م، ٢٠٥)، فتقدم صلاح الدين من القاضي محي الدين محمد بن زكي القرشي قاضي قضاة الشافعية في حلب، وطلب منه أن يخطب أول خطبة لأول صلاة الجمعة تقام في المسجد الأقصى المبارك بعد تحرير بيت المقدس (ابن شداد،٢٠٠٣م، ١١٠). وقد أقام السلطان صلاح الدين في القدس ثمانية وعشرين يومًا، فكلف أخاه العادل أبا بكر سيف الدين بإدارة القدس، فعادت مظاهر الحياة إليها كما كانت عليها في العصور الإسلامية السابقة، وأصبح المسجد الأقصى المبارك مقصدًا لعلماء الدين ورجال العلم (الزبدة، ٢٠٠٠م، ١٩٦).

اتضح عند هذه الحقبة أن إستراتيجية الحملات الصليبية التي طبقها ملوك الغرب تجاه المسلمين، كانت تعتمد على الضغط المستمر من خلال توجيه ضربات عسكرية مباشرة لمنع المسلمين من التقاط أنفاسهم، حيث تُعد معركة حطين وفتح بيت المقدس من أسباب خروج الحملة الصليبية الثالثة بزعامة فريدرش الأول بربروسا ملك ألمانيا (Friedrich I Barbarossa) الذي حكم بين الأعوام (٥٤٦هـ/١١٥٢م–٥٨٥هـ/١١٩٠م)، والملك فيليب أغسطس (Philippe II Auguste)، الذي حكم فرنسا بين الأعوام (٥٧٥هـ/١١٨٠م-٦١٩هـ/١٢٢٣م)، خلفًا لأبيه لويس السابع. وريتشارد الأول قلب الأسد، ملك بريطانيا (Richard I the Lion heart)، الذي حكم بين الأعوام (٥٨٥هـ/١١٨٩م–٥٩٥هـ/١١٩٩م)، حيث حشدوا قواتهم الصليبية على الساحل الشامي، وبعد حصار شديد سقطت بيدهم مدينة عكا في سنة (٥٨٧هـ/١١٩١م) ومنذ ذلك الوقت أصبحت عكا عاصمة لمملكة بيت المقدس (برجاوي، ١٩٨٤م، ٤٢٥).

كانت حطين بداية حقبة جديدة في الصراع، حيث قرر صلاح الدين أن يعقد الصلح مع ملوك الغرب. في وقت كانت القوات الصليبية في أوج قوتها، وتفوقها الاستراتيجي العسكري على الساحل الشامي، ومن ثم أصبح صلاح الدين مُجبر على القبول بشروط صلح الرملة.

هذه هي الصورة الرئيسية التي نتجت عن انتصار حطين؛ توقيع الهدنة "صلح الرملة" في سنة (٥٨٨هـ/١١٩٢م)، لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر. وبموجب هذا الصلح، تم الاتفاق على أن يحتفظ الفرنجة بالساحل من صور إلى يافا، بينما يحتفظ المسلمون بعسقلان، وتكون اللد والرملة مناصفة بينهم، في حين تم منح الفرنجة حرية الحج إلى بيت المقدس دون مطالبتهم بدفع أي نظام ضريبي (ابن واصل، ١٩٥٧م، ٤٠٣).

القدس بعد صلاح الدين

وسط هذا الخضم من تضارب المصالح في مصر، ومدى تأثيرها على البيئة الإستراتيجية. لم ينجح أمراء البيت الأيوبي بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م)، في إبراز تضامنهم، ولم يستغلوا قوتهم العسكرية، ووحدتهم. بل سرعان ما اشتد الصراع بينهم مع هجمات الصليبيين على مصر (برجاوي،١٩٨٤م، ٤٧٨). علاوة على ذلك تخوف المعظم شرف الدين عيسى (٥٧٦هـ/١١٨٠م-٦٢٤هـ/١٢٢٧م)، ملك دمشق من نتيجة الحرب في مصر، حيث أقدم سنة (٦١٦هـ/١٢١٩م)، على هدم أبراج مدينة القدس، وأسوارها حتى لا يجني الصليبيون منها فائدة على حد تقديره، الأمر الذي أدى إلى موجة من الدهشة في صفوف المسلمين (ابن واصل،١٩٥٧، ٣٢).

وفي هذه الحقبة من التدهور المستمر الذي شهدته المنطقة في عهد أمراء بني أيوب، ساد الانفراد والبحث عن المصالح الخاصة، بسبب الخلاف والفرقة، حيث ضاعت مدينة القدس مرة أخرى على يد الملك الكامل (أبي المعالي)، خامس سلاطين الدولة الأيوبية بين الأعوام (٥٧٦هـ/١٢١٨م-٦٣٥هـ/١٢٣٨م)، فسلمها للإمبراطور فردريك الثاني (Frederik II) سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، من خلال توقيع اتفاقية التنازل بما عرف بـ "اتفاقية يافا"، التي أدت إلى انهيار جدار المواجهة الإسلامية. وبمقتضى معاهدة يافا: حصل فردريك الثاني على القدس وبيت لحم والناصرة، في حين احتفظ المسلمون بالمسجد الأقصى المبارك، وقبة الصخرة المشرفة. وأيضًا حصل فردريك الثاني على شريط من الأرض يصل ما بين القدس والساحل. وتم الاتفاق على إطلاق سراح الأسرى من الجانبين. وتم تحديد مدة المعاهدة، بعشر سنوات وخمسة شهور وأربعين يومًا، اعتبارًا من الرابع والعشرين من شهر فبراير سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٩م) (أبو شامة،١٩٧٦م، ٤٥٢-٤٥٥) (العريني،١٩٧٩م، ١٢٦).

لم تلق معاهدة في التاريخ الإسلامي من السخط وعدم الرضا تجاه القدس، مثلما لقيت معاهدة يافا في عهد الملك الكامل، إذ غضب المسلمون لتوقيعها، وأعلن الملك الناصر داود (عاش

بين الأعوام ٦٠٣هـ/١٢٠٧م-٦٥٦هـ/١٢٥٨م) ملك الكرك، الحداد، وتعرض الملك الكامل نفسه للتأنيب من كبار الفقهاء، والعلماء في العالم الإسلامي. (العريني،١٩٧٩م، ١٢٦).

حدث أن تطورت وقائع سياسية مهمة للغاية: حيث ازداد نفوذ طوائف الخوارزمية في مصر، (سلالة تركية مسلمة كانوا أتباع للسلاجقة ثم أصبحوا حكامًا في القرن الحادي عشر الميلادي)، واشتد النزاع بين أمراء بني أيوب، وقام الصالح أيوب (٦٣٨هـ/١٢٤٠م – ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م)، سابع سلاطين بني أيوب في مصر، بتحريضهم على مهاجمة دمشق. وفي سبيل قتال الخوارزمية التي تجهزت للقتال من جديد استعان الصالح إسماعيل ملك دمشق بالناصر داود مرة أخرى (أبو المحاسن، ١٩٨٢م، ٣٢١).

وعلى الفور استنجد إسماعيل أيضًا بالصليبيين، الذين رحبوا بدعوته، وبحدوث هذا النزاع الجديد، ضد الصالح نجم الدين أيوب ملك مصر. وقد حصل الصليبيون بموجب هذا التحالف على عسقلان وطبرية وبيت المقدس سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٣م) (العريني، ١٩٦٧م، ١٤١). ولم يستمر احتلال القدس طويلا، فعادت المدينة تحت سلطة نجم الدين صالح أيوب بمساعدة الخوارزمية، بالمعركة التي انتصر بها على منافسيه من ملوك بني أيوب، وحلفائهم الصليبيين قرب غزة في سنة (١٢٤٤م)، الأمر الذي دفع بالملك الفرنسي لويس التاسع(Louis IX) (٦٢٢هـ/١٢٢٦-٦٦٨هـ/١٢٧٠م)، أن يخرج على رأس الحملة الصليبية السابعة، ويحتل دمياط سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) (عاشور،١٩٧١م، ١٠٣).

المحور الثالث: القدس في عصر المماليك

اتسعت مملكة بني أيوب، على عهد الصالح نجم الدين أيوب، وكانت كلمتهم هي العليا في مصر والشام، ومن ثم عادت، فتضاءلت مع وفاة الصالح نجم الدين سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م)، وتولى مكانه ولده الملك غياث الدين توران شاه ملك مصر والشام في الفترة من (٦٤٧هـ/١٢٤٩-٦٤٨هـ/١٢٥٠م)، وكان آخر سلاطين الأيوبيين الفعليين على مصر، حيث استكثر من طبقة المماليك حتى صاروا معظم عساكره. لم يحسن توران شاه إدارة المُلك. فنفرت قلوب المماليك البحرية منه، فتآمروا عليه، وقتلوه سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م). وبمقتل توران شاه انقرضت دولة بني أيوب. ويُعد توران المسئول عن تأسيس طبقة المماليك في مصر (أبو المحاسن،١٩٨٢م، ١٧) (ماجد، ١٩٧٨م، ١٥-١٦) (بكير، ٢٠٠٥م، ٤).

على المستوى السياسي، اجتمع أمراء المماليك على أثر ذلك الحدث، واتفقوا على تنصيب شجرة الدر-زوجة الصالح نجم الدين أيوب- على الحكم، فأصبحت سيدة مصر. لم ترض الشام عن تنصيبها، وقد استنكرها الخليفة المسعتصم بالله، آخر خليفة عباسي في بغداد، كان

قد حكم بين الأعوام (٦٤٠هـ/١٢٤٢م-٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، ولكنها سرعان ما تنازلت لزوجها الثاني عز الدين أيبك عن الحكم، وراح يُدعى "الملك المعز عز الدين أيبك الجاشنكير التركماني" (العارف، ١٩٦١، ١٩٧).

في بداية هذه الحقبة تعطلت كل سبل التفاهم بين مصر والشام، حيث أسس عز الدين أيبك حُكم المماليك في مصر سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م)، واختلف مع الناصر يوسف الأيوبي ملك دمشق. ولكن بعد حروب دامية، اتفق الطرفان على عقد معاهدة سنة (٦٥١هـ/١٢٥٣م)، تم الاعتراف بموجبها بحكم المماليك في مصر، على أن تكون القدس حتى نهر الأردن للمماليك، بينما تبقى الأجزاء الشمالية من بلاد الشام في أيدي الأيوبيين بزعامة الملك الناصر يوسف، ملك دمشق، والملك المغيث عمر ملك الكرك (أبو الفداء ١٩٨٩م، ١٩٥).

معركة عين جالوت

تُعد معركة عين جالوت، البداية الحقيقية لحكم المماليك، مكنتهم من السيطرة على حكم مصر، والشام، والحجاز، قرابة ثلاثة قرون، فيما ما بين الأعوام (٦٤٨هـ/١٢٥٠م-٩٢٣هـ/١٥١٧م) (بكير، ٢٠٠٥م،٢). في خضم الخلاف والصراع الدامي بين المماليك في مصر وأمراء الدولة الأيوبية في الشام، تعرض العالم الإسلامي، لخطر المغول، حيث اجتاح هولاكو بغداد، واسقط الخلافة العباسية، وصار الخطر المغولي يضغط على الأيوبيين في الشام، الأمر الذي دفع بعض من أتباع الملك يوسف للخروج من دمشق إلى مصر. في ذلك الوقت اعتلى قطز عرش السلطنة المملوكية في مصر سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٩م)، وقد نادى السلطان قطز بالاستعداد للجهاد ضد المغول (المقريزي،١٩٥٦-١٩٥٨م،٤٢٩،٤١٧).

بعد فترة قصيرة خرج قطز لمواجهة المغول، الذين وصلت طلائعهم إلى فلسطين، وقد عاثوا فسادًا في البلاد، حيث وقعت معركة عين جالوت بين المماليك والمغول في ٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ / ٣ سبتمبر ١٢٦٠م، وقد اشتد القتال بينهما، في سهل عين جالوت، في الجهة الشمالية الغربية من مدينة بيسان في فلسطين، وانتهت المعركة بانتصار المماليك، ووقف تقدم المغول، وتم طردهم من الشام (ابن كثير، ١٩٢٩-١٩٣٩م، ٢٢١) (أبو المحاسن،١٩٨٢م، ٧٩) (بكير، م٢٠٠٥، ١٠)(العبادي، ١٩٦٩م، ١٦٣).

إن طرد المغول إلى ما وراء الفرات هو الذي مكن المماليك من بسط سيادتهم على فلسطين بما فيها القدس، وفي سنة (٦٩٠هـ/١٢٩١م)، تمكن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون من تحرير عكا من الفرنجة، وترتب على ذلك انهيار الفرنجة في الساحل الشامي (أبو المحاسن، ١٩٨٢م، ٧٩) (بكير، ٢٠٠٥، ١١)(دونالد، ١٩٩٢م، ٢١٤). يبرهن على ذلك أن القدس

بدأت تنهض من جديد بعد طرد الصليبيين منها، واحتفظت في عهد المماليك بطابعها الإسلامي. ومن هنا فصاعدًا بقيت المدينة المقدسة بصورة راسخة في أيدي المسلمين حتى مطلع القرن العشرين.

نيابة بيت المقدس

في الجانب العسكري، تم تحرير الساحل الشامي من قبضة الفرنجة، وما رافق ذلك من إجراء تغييرات على نظام الحكم والإدارة في فلسطين في العهد المملوكي، وذلك بتأسيس ثلاث نيابات من بينها نيابة "بيت المقدس"(العمري، ١٩٨٤م، ١٧٧) (بكير، ٢٠٠٥م،٢١). وهذا يناقض ما ذهب إليه المستشرقون أمثال برنارد لويس (Bernard Lewis) وكوهن (Cohen) من أن فلسطين في العصر المملوكي كانت تتكون من نيابتين فقط هما: نيابة صفد ونيابة غزة. في محاولة منهم إثبات أن القدس لم تلق الاهتمام الكافي، ولم تكن مركزًا للحكم في العصور الإسلامية الوسطى (Cohen, Lewis,1978,9)(بكير، ٢٠٠٥م،١٤).

وهكذا بعد أن أصبحت القدس نيابة في سنة (٧٩٦هـ/١٣٩٣م)، اتسعت وأصبحت تشمل المنطقة المحيطة بالقدس، والرملة، ونابلس، والخليل (العمري، ١٩٨٤م، ١٧٧) (بكير، ٢٠٠٥م،٢١). لكن الأمر المهم جاء مع تطور الأوضاع السياسية في العهد المملوكي، إلى جانب تحقيق الاستقرار السياسي، انتقلت القدس إلى مرحلة جديدة في نظام الحكم والإدارة، من خلال تأسيس نيابة مستقلة بها. وما يلي ولايات بيت المقدس في عهد المماليك: وأول ولاية كانت الخليل حيث تقع إلى الجنوب من مدينة القدس، في وادي بين الجبال، وتبعد عن القدس مسافة نحو ٣٥ كيلو مترًا، وكان واليها يتولى في أحيان كثيرة نيابة بيت المقدس وناظر الحرمين في القدس والخليل (غوانمة، ١٩٨٢م، ٥٨) (بكير، ٢٠٠٥م،٢١).

والولاية الثانية هي الرملة حيث تبعد عن مدينة القدس مسافةنحو٤٥كيلو مترًا، وتقع في منطقة خصبة تحيط بها المزارع الكبيرة والحقول، وكانت هذه ولاية الرملة، موضع نزاع بين نيابة غزة ونيابة بيت المقدس. ففي أحيان كانت تابعة إلى مدينة غزة، وفي أخرى كانت تابعة لمدينة القدس، ولكن حدث في آخر حكم الدولة المملوكية، أن صدر مرسوم سلطاني يأمر فيه بضم مدينة الرملة إلى نيابة بيت المقدس (القلقشندي، ١٩١٣-١٩١٨م، ١٩٩-٢٠٠) (الحنبلي، ١٩٨٣م، ٣٧٣-٣٧٥) (بكير، ٢٠٠٥م،٢١).

والثالثة هي ولاية نابلس التي تُعد من أشهر مدن فلسطين، تبعد عن القدس مسافة نحو ٦٩ كيلو مترًا. وكان والي نابلس برتبة أمير طبلخاناه، وأحيانًا من أمراء العشروات أو العشرينات. ولذلك كان يسمى كاشف نابلس "والكاشف كان يطلق على الشخص الذي يتم تعيينه من قبل

النائب، وذلك لينوب عنه في حكم الولاية". وكان يتم تعيينه من قبل نائب مدينة القدس (القلقشندي،١٩١٣م، ١٩٩-٢٠٠) (الحنبلي،١٩٨٣م، ٣٧٣-٣٧٥) (الدجاني، ١٩٦٤م، ٤٢٣-٤٢٤) (بكير، ٢٠٠٥م،٢١).

على مستوى الاستقرار السياسي في المنطقة، دفعت المكانة الكبيرة التي يحتلها المسجد الأقصى المبارك عند المسلمين؛ سلاطين المماليك لتوجيه عناية كبيرة إليه، وإن كان قد سبقهم إلى ذلك، غيرهم، وبخاصة في العهد الأيوبي، فقد استنقذه صلاح الدين من أيدي الإفرنج، ووجه جُل عنايته للمسجد الأقصى المبارك، مما خلق حركة دائبة فيه، في المجالين الديني والثقافي حتى زخر بالعلماء (العسلي، ١٩٨١م، ٣٤-٣٥) (شطناوي، ٢٠٠٨م، ٦٦).

كل ذلك جعل من القدس مركزًا حضاريًا، فقد بلغ عدد المدارس التي أقيمت فيها في العهد الأيوبي أثنتي عشرة مدرسة (الحنبلي،١٩٨٣م،٣٤-٤٧) وقد حظيت مدينة القدس في تأسيس المدارس وانتشارها في العهد المملوكي أيضًا، ويعكس ذلك الأمر، سياسة تقوم على العناية بالمدينة، لما تتمتع به من أهمية دينية لدى العالم الإسلامي (شطناوي، ٢٠٠٨م، ٧٤،٧٩).

الخاتمة

نستنتج من الدراسة أن انتصار جيش الفتح الإسلامي على الإمبراطورية البيزنطية في معركة اليرموك وما رافق ذلك من تحرير لمدينة القدس، كانت بمثابة ترسيخ لهويتها العربية، ومكانتها الخاصة في الإسلام بوصفها مدينة مقدسة.

بينت الدراسة أبعاد ونتائج المتغيرات السياسية في القدس من خلال الصراع مع الفرنجة كحركة استعمارية استيطانية جديدة، ذات الصلة بالإمبراطورية البيزنطية، والتي لم تكن في الواقع إلا استمرارًا للسياسة الاستعمارية التي نهجتها الإمبراطورية الرومانية في المنطقة.

على مستوى تطور الأوضاع السياسية في المنطقة وانعكاساتها على القدس، خلصت الدراسة إلى أن مآثر الأمويين في المدينة، بناؤهم قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى. أكدت الدراسة على ازدياد مكانة الاتجاه الإسلامي في المدينة زمن العباسيين. ولم يكن الفاطميون أقل حرصاً ممن سبقهم من الحكام على تأييد حرمة بيت المقدس.

أظهرت الدراسة اثر الحكم الأيوبي على واقع القدس، من خلال الانتصار على الفرنجة في معركة حطين. وإن تحرير المدينة من قبضة الفرنجة في حطين، كان بمثابة تحول مهم في تاريخ المنطقة السياسي. حيث عادت المدينة لنور الإسلام من جديد، بعد أن خيم عليها ظلام الصليبيين الدامس مدة ثمان وثمانين سنة.

لكن النتيجة التي ينبغي علينا أن نستخلصها هي أنه بعد تحرير الساحل الشامي من قبضة الفرنجة في العهد المملوكي، رافق ذلك إجراء تغييرات على نظام الحكم والإدارة في فلسطين، من خلال تأسيس ثلاث نيابات من بينها نيابة بيت المقدس، وهذا يناقض ما ذهب إليه المستشرقون أمثال برنارد لويس (Bernard Lewis) وكوهن (Cohen) من أن فلسطين في العصر المملوكي كانت تتكون من نيابتين فقط هما: نيابة صفد ونيابة غزة. في محاولة منهم إثبات أن القدس لم تلق الاهتمام الكافي، ولم تكن مركزًا للحكم في العصور الإسلامية.

يتضح لنا من خلال هذا العرض التاريخي لتطور الأوضاع السياسية في القدس، أنها احتفظت في عهد المماليك بطابعها الإسلامي، ومن هنا فصاعدًا بقيت المدينة بصورة راسخة في أيدي المسلمين حتى مطلع القرن العشرين.

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**

- ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي الجزري الموصلي، (٦٣٠هـ/١٢٣٣م) (١٩٨٩م) **الكامل في التاريخ**، الطبعة الأولى، الجزء الثاني، الجزء الثامن، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت

- ابن القلانسي، (ت٥٥٥هـ/١١٦٠م) (١٩٨٣م) حمزة بن أسد بن علي، **المذيل في تاريخ دمشق**، تحقيق سهيل زكار، دار حسان، دمشق

- ابن شداد، أبو المحاسن بهاء الدين (ت٦٣٢هـ/١٢٣٤م) (٢٠٠٣م) **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، الطبعة الأولى، تحقيق أحمد أيبيش، دار الأوائل، دمشق

- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٨هـ/١٢٩٨م) (١٩٥٧م) **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق جمال الدين الشيال، دار إحياء التراث القديم، القاهرة

- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (٧٧٤هـ/١٣٤٤م) (١٩٢٩-١٩٣٩م) **البداية والنهاية في التاريخ**، مطبعة السعادة، القاهرة

- أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م) (١٩٨٩م) **المختصر في تاريخ البشر**. الجزء الثاني، المطبعة الشاهانية، القسطنطينية

- أبو المحاسن، جمال الدين يوسف (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م) (١٩٨٢م) **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، علق عليه محمد حسن شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت

- أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م) (١٩٧٦م) **عيون الروضتين في أخبار الدولتين**، الطبعة الأولى، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت

- أبو عليان، عزمي عيد (١٩٩٣م) **القدس بين الاحتلال والتحرير عبر العصور القديمة والوسطى والحديثة**، الطبعة الأولى، مؤسسة باكير للدراسات الثقافية، عمان

- البخاري، محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ/٨٦٩م) **صحيح البخاري**: في كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة ٦٣/٣ رقم الحديث ١١٨٩

- الدجاني، هادية وبرهان، (١٩٦٤م) **الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى**، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية

- الدوري، عبدالعزيز (١٩٩٢م) **القدس في الفترة الإسلامية الأولى من القرن السابع حتى القرن الحادي عشر**، منشور في القدس في التاريخ، ضمن القدس في التاريخ لكامل العسلي، حرر الطبعة الانجليزية وترجمها كامل العسلي، مطبعة الجامعة الأردنية، عمان

- الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) (١٩٢٥م) **معجم البلدان**، تحقيق وستنفيلد، الجزء الرابع، طبعة طهران

- الحنبلي، أبو اليمن مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن (ت٩٢٨هـ/١٥٢٢م) (١٩٨٣م) **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، الجزء الثاني، مكتبة المحتسب، عمان

- الزبدة، عبلة المهتدي (٢٠٠٠م) **القدس تاريخ وحضارة**، الطبعة الأولى، دار نعمة للطباعة، بيروت

- السرور، محمد جمال الدين، (١٩٥٥م) **تاريخ الدولة الفاطمية**، دار الفكر العربي، القاهرة

- السيوطي، أبي عبدالله محمد بن شهاب الدين أحمد بن علي بن عبدالخالق المنهاجي (ت٨٨٠هـ/٨١٣م) (١٩٨٢م) **إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى**، الجزء الثاني، تحقيق أحمد رمضان أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة

- العارف، عارف (١٩٩٩م) **المفصلُ في تاريخ القدس**، الجزء الأول، الطبعة الخامسة، مطبعة المعارف، القدس

- العبادي، أحمد مختار(١٩٦٩م) **قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام**، دار النهضة العربية، بيروت

- العريني، السيد الباز، (١٩٦٧م) **الشرق الأدنى في العصور الوسطى الأيوبيون**، دار النهضة العربية، القاهرة

- العسلي، كامل جميل (١٩٩٢م) **القدس في التاريخ**، مطبعة الجامعة الأردنية، عمان

- العمري، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن فضل الله بن يحيى بن أحمد (ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م) (١٨٩٤م) **التعريف بالمصطلح الشريف**، مطبعة العاصمة، القاهرة
- العمري، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن فضل الله بن يحيى بن أحمد (ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م) (١٩٧١م) **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، الجزء الثالث، حققه كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت
- الغامدي، عبدالله سعيد محمد (١٩٨٥م) **صلاح الدين والصليبيون: استرداد بيت المقدس**، دار الفضيلة، بيروت
- القسطلاني، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد الشافعي (٩٢٣هـ/١٥١٧م) **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**، ضبطه وصححه، محمد عبدالعزيز الخالدي، الجزء العاشر، دار الكتب العلمية، بيروت
- القلقشندي، شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد (٨٢١هـ/١٤١٨م)(١٩١٣-١٩١٨م) **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، الجزء الرابع، المطبعة الأميرية، القاهرة
- اللحام، أحمد (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) **عبقرية خالد بن الوليد العسكرية**، قدم له علي الطنطاوي، الطبعة الأولى، دار المنارة، جدة
- المعاضيدي، خاشع. وآخرون (١٩٨١م) **تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي**، الطبعة الثانية، مطابع مديرية دار الكتب للطباعة، بغداد
- المقدسي، شهاب الدين أبي محمود أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت٧٦٥هـ/١٣٦٣م) مخطوطة "**مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، باب ذكر بناء عبدالملك بن مروان قبة الصخرة، ومتى كان ذلك البيان**"، ضمن فضائل بيت المقدس، في مخطوطات عربية قديمة (دراسات تحليلية ونصوص مختارة محققة)، محمود إبراهيم (٢٠٠٩م) الناشر وزارة الثقافة الأردنية، مطبعة السفير، عمان
- المقريزي، تقي الدين احمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) (١٩٤٨م)، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا**، الجزء الرابع، نشر الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة، مصر
- المقريزي، تقي الدين احمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) (١٩٥٦-١٩٥٨م)، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر
- المسعودي، أبو الحسن علي بن علي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) (١٩٨٨م) **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، الجزء الثالث، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت
- الملاح، هاشم (٢٠٠١م) **الأسس العقائدية الإسلامية القدس**، عمان

– الواقدي، ابو عبدالله محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ/٨٢٣م) (١٩٩٧م) **فتوح الشام**، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت

– إبراهيم، محمود (٢٠٠٩م) **فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة:** دراسة تحليلية ونصوص مختارة محققة، مطبعة السفير، الأردن، عمان

– برجاوي، سعيد احمد (١٩٨٤م) **الحروب الصليبية في المشرق**، الطبعة الأولى، دار الآفاق الجديدة، بيروت

– بكير، مروان عبدالقادر (٢٠٠٥م) **المدينة الفلسطينية في عهد المماليك**، رسالة ماجستير، غير مشورة، جامعة بيرزيت

– حسين، ممدوح (١٩٩٨م) **الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري**، دار عمار للنشر، عمان

– حسن، إبراهيم حسن، (١٩٥٨م) **تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب، ومصر، وسورية، وبلاد العرب**، الطبعة الثانية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة

– خسرو، أبو معين ناصر القبادياني المروزي(ت٤٨١هـ/١٠٨٨م) (١٩٧٠م) **سفر نامة**، ترجمة يحيى الخشاب، طبعة بيروت

- خليفات، عوض محمد، الشبول، هادي احمد، (١٩٩٠م) **تاريخ الحضارة العربية الإسلامية**، الطبعة الثانية عشر، المطابع المركزية، عمان

– دونالد ب، لتل، (١٩٩٢م) **القدس تحت حكم الأيوبيين والمماليك**، ضمن القدس في التاريخ لكامل جميل العسلي، حرر الطبعة الانجليزية وترجمها كامل العسلي، مطبعة الجامعة الأردنية، عمان

– ديورانت، ول وايريل (٢٠١٣م) **قصة الحضارة**، الجزء الرابع من المجلد الرابع (١٥)، ترجمة محمد بدران، الناشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت

– رباح، إسحاق (٢٠١١م) **تاريخ القدس عبر العصور**، الطبعة الأولى، كنوز المعرفة، عمان

– سلامة، يوسف جمعة (٢٠٠٧م) **إسلامية فلسطين**، الطبعة الأولى، القدس

– شطناوي، منتصر محمود صيتان، (٢٠٠٨م) **التربية والتعليم في بلاد الشام في دولة المماليك البحرية**، (٦٥٨هـ/١٢٦٠م/ ٧٨٤هـ-١٣٨٢م) رسالة دكتوراه، غير منشورة، جامعة مؤتة، الكرك

– طقوش، حمد سهيل (١٩٩٩م) **تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام والجزيرة**، الطبعة الأولى، دار النفائس، بيروت

– عاشور، سعيد عبد الفتاح (١٩٧١م) **الحركة الصليبية**، الجزء الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة

– غوانمة، يوسف حسن (١٩٩٩م) **صفحات من تاريخ القدس وفلسطين والأردن في العصر الإسلامي**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان

– غوانمة، يوسف حسن، (١٩٨٢م) **تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي**، دار الحياة، عمان

– كاشف، سيدة إسماعيل، (١٩٥٠م) **مصر في عهد الإخشيديين**، القاهرة، مصر

– ماجد، عبدالمنعم، (١٩٧٨م) **طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر**، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة

– محافظة، علي. وآخرون (٢٠٠١م) **القدس عبر العصور**، تحرير علي محافظة، طبعة تجريبية، جامعة اليرموك، أربد

Foreign references

-Albert d Aix, Liber Christianne, Erdition pro Eoptions, Emundtione et - Rstions Sameta Hieroso Lurritanae Ecclesia in Recueil des Historienes des Croisades. Occ, paris, 1841/1966

-Brundage, Meel Canon Law and the Crusades, Wisconsin, 1989

-Bucker, Harun al-Rashid and Charles the Great Massa-Chusettes 1931

- Chalandon, F, Histoire de la premiere Croisades, Paris, 1924

-Cohen & Lewis, Population and Revenue in the towns of Palestine in - (the Sixteenth Century (Princeton: Princeton University press, 1978

-De Vohue, Ie Temple de Jerusalem, Paris,1861

GestaFrancorum Et AliorumHierosolimitanorum: The Deeds of the - Franks and the Other Pilgrims to Jerusalem, by Rosalind M.T. Hill (Editor). Published, 1967 by Clarendon Press, first published 1101

-Heyd .W. Histoire du Levant au moyen – age. 8, Leipzig, 1885

-Steven Runciman, A History of the Crusades vol.I, Cambridge University Pressfirst published 1951

-Oman, C.WC:, A History of the Art of war in the Middle Ages, - London, 1924

-Vasiliev, A.A, History of the Byzantine Empire , Madison, 1961

-Tierney, Brain, The Middle Ages, NewYork, 1978